[١٧٨ – عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: لما اشتكى النبي ﷺ ذكر بعض نسائه كنيسةً رأتها في أرض الحبشة، يقال لها: مارية، وكانت أم سلمة وأم حبيبة أتتا أرض الحبشة، فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، فرفع رأسه ﷺ وقال: (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله – تعالى –)].

قال – رحمه الله –:

[١٧٩ – عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه–: (لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) قالت: ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه ورسوله وآله وصحبه، ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين؛ أما بعد:

فقد ذكر المصنف الإمام الحافظ حديثي أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها وأرضاها –، وقد اشتمل هذان الحديثان الشريفان على جملةٍ من هدي النبي المتعلق بالقبور والنهي عن الغلو فيها والغلو في أهلها، هذان الحديثان الشريفان اشتملا على جملةٍ من الأحكام والمسائل المتعلقة بكتاب الجنائز، فناسب أن يعتني المصنف – رحمه الله – بإيرادهما في هذا الموضع.

روت أم المؤمنين – رضي الله عنها وأرضاها – الصديقة بنت الصديق هذا الحديث عن رسول الله ﷺ وهو في آخر حياته، وقد دنا من أجله وموته، وقف – عليه الصلاة والسلام – محذراً أمته، ومذكراً لها بحق ربها عليها، وبين – صلوات الله وسلامه عليه – شدة أمر الغلو وما ينتهي بصاحبه من لعنة رسول الله ﷺ عليه، فالقبور جعلها الله ﷻ عظةً واعتباراً وآيةً للمؤمن، وادكاراً يتذكر بها آخرته فينكسر بها قلبه لله ﷻ ، وجعلها الله –

تعالى – تعين على تحقيق الإيمان وقوة اليقين في الرحمن، حينما يَقصر أمل العبد في الدنيا، ويحس أنه سينتقل إلى الآخرة إما إلى نعيمٍ أو إلى جحيمٍ، فإذا خرجت القبور عن مقصودها وأصبحت مضادةً لهذا المقصود: فإنها تكون شراً وبلاءً وعناءً على الأمة. فكم من قلوبٍ ضلت وأضلت حينما غلت في القبور وأهلها، هذا رسول الأمة ﷺ وهو في آخر وقفاته من هذه الدنيا، يختم رسالته بهذه الوصية العظيمة التي تذكر المؤمن بحق الله عليه من إخلاص العبادة لوجهه، وعدم صرف حقه لغيره كائناً من كان، وهذه نصوص الكتاب المتضافرة المتكاثرة تبين ما لله من حقوقٍ لا يجب ولا يجوز صرفها لغير الله، فالقرآن ما أنزله الله ﷻ إلا لكي يحمي به حقه ﷻ من إخلاص العبادة لوجهه، وتوحيده وإفراده ﷻ ، ولقد عظم الله هذا الحق حتى خاطب سيد الخلق ﷺ يذكره بعظيم هذه الحرمة، ويذكر أمته من ورائه ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ فخاطب الله بذلك أشرف خلقه وأحبهم إليه ﷻ ، يُذكّره وينبهه على أن حقه – سبحانه – في إخلاص العبادة لوجهه لا يمكن أن يجامل فيه أحداً كائناً من كان ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ كل ذلك حينما ضيعت النصارى حق الله في الإخلاص وتوحيده، يقول ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ثم خاطب خطاب الوعيد والتخويف والتهديد حتى في الأنبياء والرسل، يشنّع ويُقَرّع كل من غلا فيهم ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ولقد عظم الله حقه فخاطب بذلك نبيه ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ فله وحده ﷻ إخلاص العبادة وتوحيده وإفراده، والخضوع والخنوع والخشوع والذلة له ﷻ.

نظر – عليه الصلاة والسلام – إلى أممٍ مضت وخلت وانقضت ضلت سواء السبيل، وصار من بعدها جيلٌ بعد جيلٍ من اليهود والنصارى، فعظموا قبور أنبيائهم وصالحيهم فبنوا عليها المساجد، فلما بلغه – عليه الصلاة والسلام – أمْرهم، قال – عليه الصلاة والسلام –: **[(أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا**

على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله)] من عرف حق الله ﷻ ، وحق الأنبياء، وحق الصالحين، وأعطى الحق كاملاً لله ﷻ ، لم يصرفه إلى أحدٍ سواه، وأعطى الأنبياء حقوقهم والصالحين حقوقهم دون غلوٍّ ولا إفراطٍ ولا تفريطٍ: فقد أقام نفسه على السنة، وأصاب هدي الشريعة والملة، ولا يقع الغلو إلا بسبب الجهل، الجهل بحق الله ﷻ. فهناك أمورٌ لا يجوز صرفها لغير الله ﷻ ، ومن هذه الأمور: أنه لا يجلب الخير ولا يدفع الشر والضر إلا الله وحده لا شريك له، ولذلك برئ النبي ﷺ من الحول والقوة، أن يملك لنفسه نفعاً أو ضراً إلا ما شاء الله، وأمره الله ﷻ من فوق سبع سماواتٍ أن يصدع بذلك كما بينه في الآيات، وكذلك جعل الله من كنوز الجنة: أن يبرأ العبد من الحول والقوة إلا بالله ﷻ ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء ولا يكشفه أحد سواه. ولذلك أكد النبي ﷺ ذلك حتى على رؤوس الناس، ونادى وقال: (يا فاطمة بنت محمدٍ، سليني من مالي ما شئت، لا أغني لك من الله شيئاً). "لا أغني لك من الله" بجلب نفعٍ أو دفع ضرٍ، فذلك لا يملكه إلا الله وحده لا شريك له.

والله ﷻ ابتلى بني آدم، وسلط عليهم الشياطين من الإنس والجن تجتالهم عن سبيله، وتأخذهم عن طريقه، ولكنه – سبحانه – أقام المِعْلم والدليل، فصراطه مستقيمٌ وصى عباده المؤمنين أن يلتزموه، وأن يسيروا عليه ويرتضوه، ويبتهلوا إليه – سبحانه – ويدعوه أن يثبتهم على ذلك الصراط المستقيم.

فمما يفعله شياطين الإنس والجن: أنهم يستدرجون العباد ويخرجونهم عن سبيل التوحيد والرشاد، فيبتدئ العبد بالغلو في الصالحين والأنبياء والمرسلين، ولا يزال الشيطان يستجريه شيئاً فشيئاً حتى يضله عن سواء السبيل، فيخلع – والعياذ بالله – ربقة الإسلام من عنقه، ولذلك عظم النبي ﷺ أمر الغلو، ففي الحديث الصحيح عنه – عليه الصلاة والسلام –: أنه لما خرج من مزدلفة ومضى إلى منىً؛ لكي يرمي جمرة العقبة، أمر الفضل بن العباس – رضي الله عنه وعن أبيه – أن يلتقط له سبع حصياتٍ، ثم أخذهن – عليه الصلاة والسلام – بكفه وصاح أمام أمته، وذلك في آخر حياته أمام الجموع الكثيرة من الصحابة – رضي الله عنهم وأرضاهم – ويقول: (بمثل هذا فارموا، وإياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين).

فالقبور جعلها الله ﷻ عظةً واعتباراً، فإذا زارها المؤمن، وادكر بحال أهلها، ونظر إلى ما صاروا إليه: زادت من إيمانه بالله ﷻ ، والمقبور صالحاً، ولو كان من أصلح الصالحين، فإنه محتاجٌ إلى رحمة أرحم الراحمين، فهو محتاجٌ إلى دعائك، ومحتاجٌ إلى مسألتك الله ﷻ أن يلطف به، ولذلك إذا خرج المسلم عن هذا الأصل العظيم من الاتعاظ والادكار الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله: (كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها؛ فإنها تذكِّر الآخرة) فمن زار القبر وأراد السنة وهدي النبي ﷺ ، فعليه أن يمضي إلى القبر يريد تذكُّر الآخرة، ويرجع من القبر وقد تذكر الآخرة، أما أن يمضي إلى القبور ويقف على تلك الأماكن مستغيثاً بأهلها مستجيراً بأصحابها !! يقفون عند القبور وكأنهم أمام بيت الله ﷻ يتمسحون ويُقبّلون، فيا لها من أعتابٍ عند أهلها قُدسَت وما يجوز تقديسها، وتسمع النداءات والابتهالات، والمسائل والحاجات، حتى إن الواحد – والعياذ بالله – منهم يخشع عند قبر الولي أكثر من خشوعه بين يدي الله ﷻ ، ويغلون في القبور حتى إنهم يشترطون للوقوف بحضرتها والوقوف عندها: أن يكون الإنسان متطهراً متخشعاً متذللاً !! و ينادى أصحابها بنداءاتٍ وابتهالاتٍ لا تليق إلا بالله ﷻ فاطر الأرض والسماوات.

ينادون صاحب القبر بأنه المتصرف في الكون، غياث المستغيثين، وملاذ الهاربين، وأمان الخائفين، وجوار المستجيرين، وكلها حقوقٌ لله رب العالمين !! من الذي يجيب المضطر إذا دعاه؟! من الذي يكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض؟! أإله مع الله؟! ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ فلا إله إلا الله كيف عُظمت هذه القبور وأُنزلت في غير منازلها؟! واعتقد في أهلها؟! فابتدأوا بالغلو في الأنبياء، ثم تدرجوا من بعدهم إلى الصحابة، ثم إلى الصالحين، فقلَّ أن تمر في مكانٍ أو في مدينةٍ أو قريةٍ، إلا وقد أقام الشيطان لهم مَعْلماً يعبدونه يدعونه من دون الله ﷻ.

واستمع إلى أقوالهم العجيبة، وقصصهم المختلقة المكذوبة التي صُرفت بها القلوب عن ربها، وأصبح الناس يستغيثون بأهل القبور ويستجيرون بهم – والعياذ بالله –، حتى إن أهل الكفر كانوا في الجاهلية إذا نزلت بهم الشدة وألمت بهم المصيبة: دعوا الله مخلصين له الدين، كان كفار الجاهلية إذا ركبوا الفلك كما أخبر الله ﷻ ، وهذا شيء يبينه القرآن، حتى وهم في حال الكفر والشرك بين الله – تعالى –: أنهم إذا أصابهم الضر وأحاطت بهم المصيبة دعوا الله مخلصين له الدين، وذكر بعض العلماء: أنه كان أهل الجاهلية إذا ركبوا في السفن، ربما

أخذوا معهم شيئاً من الأصنام فيعبدونها ويعظمونها، فإذا نزلت بهم المصيبة رموا أصنامهم في البحر وابتهلوا إلى الله ﷻ. ولكن من عظّم القبور وأهلها – نسأل الله السلامة والعافية – ربما أحاطت بهم النكبات وألمت بهم الملمات، فأصبح يستغيث ويطلب المدد من فلانٍ وعلان !! نسي الله، ونسي الذي يجيب المضطر إذا دعاه !! فأصبح حالهم أشد – والعياذ بالله – من حال غيرهم.

إضافةً إلى ذلك: فإن القبور يُعظَّم حالها ويُغلا فيها بالبناء عليها، وتجصيصها وتزويقها وتحسينها، وهذا رسول الله ﷺ يبين حرمة ذلك، فكان – عليه الصلاة والسلام – ينهى عن رفع القبور، وثبت عنه في الحديث الصحيح ﷺ: أنه كان إذا بعث علياً، بعثه أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه بالأرض، وفي حديثنا: **[(أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً)]** فأجمع العلماء – رحمهم الله – على حرمة رفع القبر، وحرمة البناء عليه، وحرمة تجصيصه، وأنه لا يجوز فعل ذلك كله، وأنه ذريعةٌ إلى الشرك والعبادة – نسأل الله السلامة والعافية –.

فالواجب على المسلم: أن يعلم أن الله – تعالى – لا يأذن أن يُصرف حقه لأحدٍ كائناً من كان، وعليه أن يعلم علم اليقين: أنه لا سعادة له في الدارين إلا إذا أخلص العبادة لله، الدعاء عبادةٌ، والاستغاثة عبادةٌ، والاستجارة عبادةٌ، والذبح عبادةٌ، والنذر عبادةٌ، والطواف عبادةٌ، وما لا يليق إلا بالله من الأوصاف والصفات لا يجوز أن تكون لغيره كائناً من كان، فيجب على المسلم: أن يعطي صاحب القبر حقه، فإن كان عبداً صالحاً اعتقد محبته في الله ﷻ ، وسلم عليه السلام الوارد في سنة النبي ﷺ ، وانصرف عنه معتبراً بحاله مدكراً بمآله، وحينئذٍ تكون زيارته شرعيةٌ.

وفي الحديث الثاني يبين النبي ﷺ حرمة تعظيم القبور، حتى إنه قال: **[(لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)]** قال بعض العلماء: في هذا دليلٌ على شدة غضبه – عليه الصلاة والسلام – على من اتخذ القبور مساجد، وأن من اتخذ فوق القبر مسجداً، أو بنى على القبر ضريحاً أو مسجداً: فإنه ملعونٌ بلسان رسول الله ﷺ ، ومن لعنه رسول الله ﷺ فقد لعنه الله ﴿ **وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا** ﴾ فعلى المسلم أن يتقي هذه الأمور وأن يُحذر منها.

ولما فارق الخلف حال السلف، وعُظمت القبور، وبُنيت عليها الأضرحة، وبُنيت عليها المساجد: أصبحت ترى الأمور المنكرة، فترى المشاهد مبنيةً على القبور يزورونها ويقصدونها، ولربما قصدها القاصد أكثر من مرةٍ وكأنه في حجٍّ أو عمرةٍ – نسأل الله السلامة والعافية –. إضافةً إلى النداءات والابتهالات والدعوات، والألقاب التي لا تليق إلا بالله فاطر الأرض والسماوات، ويكتبون دعواتهم وابتهالاتهم في الأوراق، كرسائل توضع على تلك الأضرحة وتوضع عند القبور، يعتقدون أن صاحب القبر ينفعهم ويضرهم – نسأل الله السلامة والعافية –، وكل ذلك من الشرك الموجب لكفر العبد، ومن مات وهو يعتقد أن صاحب القبر ينفعه أو يضره – ولو كان صاحب القبر من كان –، فقد أشرك بالله ﷻ. ولربما يكون بين العبد وبين الشرك أقل من شعرةٍ، إذا انصرف قلبه عن سبيل الله وصراط الله، من إخلاص العبادة لله. ولربما بنداءٍ واحدٍ يستغيث فيه بصاحب قبرٍ أو صاحب مشهدٍ أو صاحب ضريحٍ: يخرج فيه من ربقة الإسلام – والعياذ بالله – ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

ودين الله كاملٌ، ما توفي – عليه الصلاة والسلام – إلا وقد كَمُلت الشريعة، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة – صلوات الله وسلامه عليه –. ومن حرصه على هذه الأمة وشفقته – عليه الصلاة والسلام –: حذرها من الغلو – الغلو في عباد الله ومخلوقات الله –، فكان ﷺ يحمي حمى التوحيد وحمى الإخلاص بالتحذير من الغلو، والغلو يكون بالاعتقاد، ويكون بالقول، ويكون بالعمل.

فالغلو بالاعتقاد: أن يعتقد في صاحب القبر، فيعتقد في هذا الميت أنه ينفع ويضر – كما ذكرنا –، أو يعتقد أن روح صاحب القبر حاضرةٌ ناظرةٌ !! ولقد سمعت بأذني من يقول: عقيدته في النبي ﷺ: أنه حاضرٌ ناظرٌ معه حيث كان، فيستغيث به ويستجير به، ويسأله حاجته ويلوذ به – صلوات الله وسلامه عليه–، وهذا الاعتقاد بإجماع العلماء كفرٌ: أنه إذا اعتقد أن روح النبي ﷺ معه حاضرةٌ ناظرةٌ. ويعتقدون في الولي أيضاً أنه حاضرٌ ناظرٌ، ولربما أقيمت الموالد التي يثنى فيها على أصحاب القبور، فاسمع إلى ألقابهم وكلماتهم وأوصافهم التي لا تجوز إلا لله وحده لا شريك له، المتصرف في الكون وسيد الثقلين، حتى إن بعضهم يصف الولي أكثر مما يصف به النبي ﷺ. كذلك، الغلو في الاعتقاد: أن يعتقد في الصالح أنه يعلم الغيب، وأنه يكاشفه وأنه يطَّلِع على الأمور، وهذا – والعياذ بالله – كفرٌ بالله، أجمع العلماء على أن من اعتقد في المخلوق – أياً كان

هذا المخلوق –: أنه يعلم الغيب، ويعلم ما يكون أو ما هو كائنٌ: أنه كافرٌ بالله ﷻ. فالأنبياء والرسل لا يمكن لواحدٍ منهم أن يعلم ما يكون بعد طرفة عينٍ إلا أن يعلمه الله ﷻ ، قال ﷺ في الحديث الصحيح: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت: لما سقت الهدي، ولجعلتها عمرة) وكان ﷺ يشدد في هذا الأمر.

فلا يجوز لمسلمٍ أن يعتقد أن أحداً يعلم الغيب إلا الله وحده لا شريك له ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فالله وحده هو الذي يعلم الغيب، فيعتقد في الولي – خاصةً إذا كان حياً – أنه اطلع على أمور الغيب، وبعضهم يعتقد أن الولي إذا وصل إلى حالةٍ من العبادة يُكشف له الحجاب، فيطَّلع على ما في اللوح المحفوظ !! – نسأل الله السلامة والعافية –، فيخبر بشقاء هذا وسعادة ذاك، وكأنهم يتصرفون بالكون مع الله ﷻ ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. فهذا من الغلو المفضي إلى الكفر بالله ﷻ ، ولذلك كان النبي ﷺ يشدد في هذا الأمر، وينبه الصحابة على أنه مخلوقٌ وعبدٌ لله ﷻ ، ولما قالوا: أنت سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، قال – عليه الصلاة والسلام –: (أيها الناس، بعض قولكم لا يستجرمنكم الشيطان) فالشيطان قد يجر الإنسان من باب الخير إذا يئس منه في باب الشر، وكان الصحابة – رضوان الله عليهم – أشد ما يكونون في حماية حمى التوحيد وجناب التوحيد من أن يصرف لغير الله ﷻ ، فهذا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – لما ولي الخلافة قطع الشجرة التي بايع تحتها أصحاب النبي ﷺ بيعة الرضوان، قطعها – رضي الله عنه وأرضاه –؛ خوفاً من أن يبالغ الناس فيها، فيخرجون عن سبيل الإخلاص إلى طريق الشرك – والعياذ بالله –، وهذا عمر الفاروق، المحدَّث الملهم – رضي الله عنه وأرضاه – يقف أمام بيت الله ﷻ والناس عن يمينه وشماله، مع كونه يحمي حمى بالتوحيد بالفعل يحميه بالقول، ويقف أمام الحجر، ويقول بصوتٍ يسمعه من حضر: "أما إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّلك ما قبَّلتك". فكانوا – رضوان الله عليهم – شديدين حتى في تعظيم الناس لهم، هذا عبدالله بن مسعودٍ، الصحابي الجليل صاحب السوادين والنعلين، الذي بلغ المكانة العظيمة من رسول الله ﷺ ، والمنزلة الشريفة الكريمة، حتى كان يدخل على النبي ﷺ وقد رُفع له الحجاب، هذا الصحابي الجليل خرج ذات يومٍ من المسجد فخرج معه أصحابه – رضوان الله عليهم –، فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: رأيناك تسير لوحدك فأحببنا أن نشيعك، فقال – رضي الله عنه وأرضاه –: انصرفوا،

إنها ذلةٌ للتابع وفتنةٌ للمتبوع. فكانوا – رضوان الله عليهم – لا يرضون بالغلو، ويقفلون جميع الأبواب والسبل المفضية للغلو، والغلو قد يبدأ بكلمةٍ يسيرةٍ تنتهي بصاحبه إلى الكفر – والعياذ بالله –.

وقد يبدأ بفعلٍ يسيرٍ يعظم فيه الإنسان غيره، فيستزله الشيطان إلى ما هو أعظم وأعظم، ولذلك ابتدأ الشرك على وجه الأرض بالغلو في الصالحين، فهذا ابن عباسٍ – رضي الله عنهما – ذكر آلهة قوم نوحٍ – وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً –، وقال: "كانوا أقواماً صالحين، فلما توفوا حزن عليهم الناس، فجاءهم الشيطان وقال لهم: لو أنكم صورتم صور هؤلاء الصالحين، وتذكرتم ما كانوا عليه من الخير، لكان في ذلك خيرٌ لكم، فصوروا صورهم، ثم جاءت من بعد ذلك خلوفٌ، فقال لهم: إنهم لم يصوروا هذه التماثيل إلا ليعبدوها، فاعبدوها، فعبدوها من دون الله ﷻ". فلذلك ينبغي للمسلم أن يحفظ حق الله ﷻ ، وأن يعلم أنه ليس هناك من مخلوقٍ ولا أحدٍ سوى الله ﷻ ينفعه أو يضره، الله وحده الذي ينفع، والله وحده هو الذي يضر.

ولما ذكرت أم سلمة – رضي الله عنها وأرضاها – وأم حبيبة الكنيسة التي في الحبشة – في الحديث الأول –، قالت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها –: **[فرفع رأسه ﷺ]** فانظر – رحمك الله – حال رسول الله ﷺ وهو على فراش الموت، حينما سمع أمراً منكراً يمس جناب التوحيد ومقام التوحيد: رفع – عليه الصلاة والسلام – رأسه، مع شدة المرض وكونه في مرض الموت، رفع رأسه غيرةً على حق الله ﷻ. وكان أنبياء الله يغارون على حق الله، وكل مؤمنٍ مخلصٍ في توحيده وإيمانه يغار على هذا الحق العظيم، حتى إن الهدهد غار على حق الله ﷻ ، وقال لسليمان: ﴿ **وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** ﴾ فثرَّب على عبدة الشمس ومن عظم الشمس فعبدها من دون الله ﷻ.

[فرفع رأسه ﷺ ، وقال: (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً)] وبناء القبر على المسجد لا يكون إلا بتعظيم صاحب القبر، فهم يرون أن صاحب القبر له منزلةٌ، وله مكانةٌ ينبغي أن يُفضَّل فيها على غيره من الأموات، فهذه هي الخطوة الأولى التي يريدها الشيطان، فيأتي للإنسان ويقول له: هذا قبر عالمٍ – أو قبر رجلٍ صالحٍ –، فكيف تسويه بسائر القبور؟! فارفع هذا القبر وشيد هذا القبر؛ لأنه من أولياء الله، ومن صالحي عباد الله. بل والأغرب من ذلك: أن حدث في بعض المسلمين: أن يأتي الشيطان لرجلٍ في النوم، ويقول له: إن في المكان الفلاني قبراً لوليٍّ – أو قبراً لعبدٍ صالحٍ –، فاذهب وابْنِ على هذا القبر

وشيد على هذا القبر، فيذهب – والعياذ بالله –، فيبني المشاهد والأضرحة ليس على قبرٍ، بل حتى على ربما شيء ليس بالقبر!! فبلغ التعظيم ليس للقبور، بل حتى لما يُختلق ويدعى أنها قبورٌ للصالحين !!

[فرفع رأسه ﷺ ، وقال: (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور)] وهذا يدل على خطر وفتنة الصور، وأنها تفضي بالعباد إلى الشرك، ولذلك حرم النبي ﷺ الصورة ولعن المصورين، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لعن الله المصورين). وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: أن الله – تعالى – يقول: (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا حبةً، وليخلقوا شعيرة). وفي الحديث الصحيح: (أن من صور الصور كُلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ) وهذا من عظيم العذاب.

قال – عليه الصلاة والسلام –: **[(بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور)]** لأن أم سلمة وأم حبيبة – رضي الله عنهما – ذكرتا جمال الكنيسة، وذكرتا حسن الكنيسة، ولذلك كانوا يبنون الكنائس على صالحيهم، ويجملونها ويزوقونها ويحسنون فيها التصاوير، وكانت النصارى تصور مريم وكذلك المسيح – عليه السلام –، ويعظمون هذه الصورة ويجعلونها في كنائسهم.

قال ﷺ – بعد بيانه للفعل والمنكر –: **[(أولئك شرار الخلق عند الله)]** أولئك الذين يفعلون هذا الفعل شرار الخلق عند الله، وهذا يدل على أن تعظيم الصالحين وتعظيم القبور والغلو فيها شرٌّ على صاحبه في الدنيا والآخرة، فلا يجوز للمسلم أن يعظم القبور، ولذلك ورد النهي حتى عن الكتابة على القبر، فنص طائفة من العلماء على أنه لا تجوز الكتابة على القبر، كل ذلك لئلا يفضي الأمر إلى تعظيم صاحب القبر. ولما توفي عليٌّ – رضي الله عنه –، كان من وصيته: أن يدفن بالليل، ودفن في دار الإمارة؛ حتى يخفى قبره – رضي الله عنه وأرضاه –. وهذا هو الذي حرص النبي ﷺ على التنبيه عليه في الحديث الثاني، فإن النبي ﷺ قال: **[(لعن الله اليهود والنصارى)]** اللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله. ومن لُعن فإنه – والعياذ بالله – تنصم أذنه وتُطمس بصيرته، كما قال تعالى: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ** ﴾ ولذلك من أشد ما يكون من العقوبة على العبد: أن تصيبه لعنة الله. قال ﷺ: "لعن الله اليهود" فإما خبرٌ بمعنى الإنشاء، وإما خبرٌ يتضمن الإنشاء.

[(لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)] وفي الحديث الآخر – في الرواية الأخرى – : أنه نهى عن اتخاذ قبره عيداً.

قالت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها وأرضاها –: **[ولولا ذلك لأبرز قبره]** أي: أن النبي ﷺ ذكر حال اليهود ولعنهم في مرض الموت؛ لتعظيمهم لقبور أنبيائهم وصالحيهم؛ لكي يحذر أمته من الغلو في قبره. وقولها: "ولولا ذلك لأبرز قبره"؛ لأن قبر النبي ﷺ قُبر في حجرة أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها –، فأخفي قبره ولم يكن أمام الناس، ولا سهلاً أن يصل إليه كل أحدٍ، فأصبح في الحجرة محفوظاً عن أن يُعبد أو يُسجد له، فيُتخذ وثناً يقصد في العبادة، ومن هنا حفظ الله ﷻ شخص القبر عن أن يُسجد له ويُعظَّم ويُعبد من دون الله ﷻ ، وإن كانت التعظيم المعنوي، والشرك الموجود في القلوب من التعظيم فيه والغلو فيه – عليه الصلاة والسلام – لا يسلم منه أهل القبور الذين يعظمونها ويعتقدون في أصحابها، فمن وصيته – عليه الصلاة والسلام –: ترك الغلو في الأنبياء والصالحين، وحفظ حق الله ﷻ.

وفي هذين الحديثين الشريفين دليلٌ على أنه ينبغي عند قبر الميت أن لا يبالغ فيه إذا كان من الصالحين، وأن لا يعظم برفع القبر والتشييد عليه والبناء عليه. وفيه دليلٌ على حرمة بناء الأضرحة والمشاهد، وما يسمى بالعتبات، ونحو ذلك: من الفسطاط الذي يُضرب على القبر؛ تعظيماً لصاحبه، فكل ذلك مما يفضي إلى الشرك بالله ﷻ.

وفي هذا الحديث – أيضاً – دليلٌ على سد الذرائع، وقفل الأبواب المفضية إلى الشرك بالله ﷻ ، سواءً كانت من الأقوال أو كانت من الأفعال، فذريعة القول: المديح، والمبالغة في وصف أهل القبور وأهل المشاهد وتعظيمهم، وأنهم يغيثون من يستغيث، ويجيرون من يستجير، ووصفهم بالألقاب التي لا تليق إلا بالله ﷻ ، وإطرائهم كإطراء اليهود والنصارى لعظمائهم وأنبيائهم.

وكذلك أيضاً: سد الذرائع المفضية إلى الشرك من الأمور التي تتعلق بالأفعال: وذلك بالبناء على القبور وتشييدها، أو الكتابة عليها، والثناء على أهلها وتعظيمهم، كما لا يخفى.